(1)

طبيعة الخطاب الشعري

إذا كان الشعر (ديوان العرب) في الجاهلية، ولا يوجد لديهم عِلْمٌ أَصَحّ منه يعبر عن حياتهم الاجتماعية؛ وينافح عن وجودهم في وجه أعدائهم، ويوحي بعاداتهم ومعتقداتهم ويفخر بمآثرهم[1] فإن هذا الشعر نفسه يؤكد فيض العبقرية التي ألهمتهم إياه، وجعلته يتميز من الملاحم اليونانية (الإلياذة) و(الأدويسة)... وهو شعر يثير الدهشة على ارتباطه بالبيئة وتعبيره عنها، ولكنه لم يكن شبيهاً بالتاريخ أو الفلسفة أو المحاكاة....

وإذا كان مصطلح (المحاكاة) أو (المثالية الوجودية) يختلف أيما اختلاف عن الخطاب الفلسفي والتاريخي؛ والجغرافي فإن الخطاب الشعري أشد اختلافاً منه في ذلك. فالشعر هو الذي يوازي البيئة في صميم الحَدْس والرؤيا، أي هو معرفة فيما وراء المعرفة، ويستند إلى التخييل؛ والتمثيل بلغة الدهشة، بينما الفلسفة نَسَق معرفي عقلاني محض، وذو طبيعة جدلية تعتمد التعليل والبرهان، والشعر انتهاك صريح للواقعي والاجتماعي والفلسفي، لأنه تعبير إشاري مكثف ومجازي عن المعارف والحقائق أو ما نطلق عليه المضمون أو الجوهر المكافئ. وتظل الفلسفة رؤية عقلية تفسر وتحلل وتضيف ما تراه ملبياً لاستكمال عناصر الجوهر المعادل؛ سواء كان حقيقياً أم متخيلاً... ومن ثم فالواقع (الجوهر) بكل أحداثه يحضر في الشعر

---

[1] انظر طبقات فحول الشعراء 24/1 – 25 والعمدة 65/1 و137 و225 – 226، والمسبار في النقد الأدبي 20 و85 و94 و99 والرثاء في الجاهلية والإسلام 19 – 44 والحيوان في الشعر الجاهلي (101 – 267).

حضوراً أدبياً يستشف من المتخيل الشعري؛ ويحمل إضافات شتى؛ وفق ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في تحليله لعدد من قصائد الجاهليين وحكم عليها بالوحدة المعنوية؛ وفي طليعتها قصائد لبيد بن ربيعة وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وغيرهم....[1] ووفق ما عرض له الدكتور محمد النويهي في (الوحدة الحيوية)[2] التي نوافقه على بعض الآراء التي عرضها فيها؛ على حين قَدَّم آراء أخرى تحتاج إلى مناقشة طويلة، وهو ما حدانا لكي نخصص القسم الرابع لما قاله في رؤية الدكتور طه حسين حول ماهية الوحدة المعنوية... لذا فإن التاريخ أو الفلسفة أو علم الاجتماع أو علم النفس أو الجغرافية و..... يحضر حضوراً كاملاً بما جرى ووقع ويمثله قول تأبط شراً في ذكر صاحبه وهو ابن عم امرأته الذي خرج غازياً معه يريد غزو بني بَجِيْلة؛ فاكتشفوا أَمْرهما وترصَّدوهما، ولم يستطع صاحبه الهرب فقُتِل؛ ثم أغار على العَوْص من بجيلة بصاحبين له فقُتلا، فتوعدهم ثانية؛ إذ قال[3]:

أبعد قتيلِ العَوْصِ آسى على فتىً
وصاحبهِ أو يأملَ الزاد طارقُ؟!
لعَمْرُو فتى نلتم كأن رداءَهُ
على سرحة من دَوْمَةَ شانقُ

لأَطْرُدُ نَهْباً أو نزورُ بفتيةٍ
بأيمانهم سُمْرُ القَنَا والعقائقُ

فعُدُّوا شُهُوْرَ الحرمِ، ثم تعرَّفُوا
قتيلَ أَناسٍ أو فتاةً تُعانقُ

وعلى الرغم من أن فَحْوى هذا الشعر يتناول حادثة تاريخية أَوْجَز تفاصيلها؛ فقد طفق يتناولها تناولاً شعرياً؛ ويعبر عن عناصر وجدانية

---

[1] انظر حديث الأربعاء/18/1 ، 113.
[2] انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 435/2 – 648.
[3] ديوان تأبط شراً 121 – 124.

شتى بطريقة الإشارة اللافتة والموحية، وفي ألفاظ قليلة تبُوح بمعان "كثيرة بإيماء إليها، ولمحة دالة عليها"[1] ويظل الدكتور طه حسين وكمال أبو ديب ومصطفى ناصف من أبرع النقاد المحدثين الذين وُفّقوا في قراءة الشعر القديم قراءة فنية راقية لا تنحاز للمحاكاة، ولا تلغيها إلغاء كاملاً... ولا تجعل البيئة أصل كل الشعر؛ فللعاطفة والثقافة والخيال أثر واضح في ابتداع القصيدة وتلقيها. فلبيد (مثلاً) صور آثار الديار ولكنه امتلأ بالحب والشوق والحنان إلى كل أثر فيها، ونعى على الزمن ما خَرّبه من ملامحها حتى كأنها النقش على الحجر؛ ومن ثم صارت موئلاً للوحش تعيش فيها مطمئنة بينما خلت من سكانها الحقيقيين.. ولذلك "فحسبه أن يذكر ويكرر الذكرى، وحسبه أن يستحضر ويلح في الاستحضار.." ولكنه "ينظر فلا يكاد يرى إلا تلالاً ضئيلة قد اتخذت من هذا السراب أردية"[2].. فلبيد وغيره لم يكن ينقل ما يراه وفق اعتراف صريح يتحدث فيه عن هذا الجوهر أو الواقع أو البيئة[3] المطابقة له من دون تشويه أو تحريف، أو زيادة أو نقصان... ولكنه كان يصور بريشة الفنان الماهر ما يقع على عدسة خياله، ووفق مفهوم (الموازاة) الذي يشكل طبيعة فنية تبعده عن التقليد الحرفي وإن تناول المواضع التي عرفها تناول الجغرافي[4]؛ ليصبح وثيقة فنية لا وثيقة موضوعية تاريخية تقف شاهداً على حقيقة ما أو حادثة ما.. وهو حديثنا الآتي.

---

(1) انظر كتاب الصناعتين 383 ــ مفهوم (الإشارة) ومصطلحات نقدية 47 ــ 50.

(2) انظر حديث الأربعاء 19/1 ــ 22، وراجع كتاب (الرؤى المقنعة لكمال أبو ديب) وكتابي الدكتور مصطفى ناصف (صوت الشاعر القديم ــ وقراءة ثانية لشعرنا القديم).

(3) انظر (التاريخ؛ الألفاظ والمذاهب) ــ ص 35 ــ وحديث الأربعاء 18/1 ــ 54.

(4) انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة 297 ــ 303.